المحاضرة09: نشأة فن القصة وتطورها في الأدب العربي القديم.

القصص والحكايات كغيرها من الفنون تستثير في الإنسان خياله، وتشبع حاجاته الفطرية، الروحية منها والوجدانية والاجتماعية، والإنسان في حياته اليومية العادية يريد أن يحكي لغيره من الناس، أو يستمع إلى حكاياتهم، يجد دائما ما يستحق أن يقال تعبيرا عن تجارب، وتصويرا لما يجري له ويقع، هدفه من ذلك الاستئناس بالآخرين أو التسلي أو التسامر، وقطع أوقات الفراغ الطويلة بالأحاديث التي قد تتخذ شكل الحكايات والقصص المشوقة، سواء أكانت من حي الخيال، أم مما حدث في الواقع والحقيقة.

والفن القصصي شكل من أشكال النثر العربي، عرفها العرب على مختلف أزمانهم وبيئاتهم، وكان لها ضرورتها ودواعيها، شأنها في ذلك شأن الخطابة والأمثال والمأثورات الحكمية وغيرها، مما يتأثر بالاتجاهات السائدة في مجتمعها.

1- العصر الجاهلي:

لقد عرفت القصص عند العرب منذ العصر الجاهلي بطابعها الشفهي، فقد كانوا يتسامرون ببطولاتهم في حروبهم وأيامهم التي أصبحت مادة محبوبة للمسامرة إلى جانب رواية بعض الأساطير والخرافات عن الجن والشياطين، مع ما يتداولونه بينهم عن أحاديث الهوى وأخبار العشاق،[i] ومن أشهر القصص العربية ما نسج حول أيام العرب من حكايات وأخبار، وقد اهتم بها الرواة جيلا بعد جيل، ثم دونت في عصور التدوين بعد الإسلام.

ويرى كثير من المهتمين بالحديث عن القصص العربي أن له أنواعا متعددة ووظائف مختلفة، وأن العرب قبل الإسلام كانت لهم حكاياتهم وخرافاتهم وأساطيرهم، وكانت لهم أنواع مختلفة من القصص، منها البطولي الذي وصف الحروب ومنها العاطفي الذي صور آلام المحبين ومآسيهم، وقد اتصلت مواد هذه القصص الوفيرة بواقع الحياة وارتبطت مضامينها بالقيم المعروفة عندهم كالشجاعة والبطولة والكرم والوفاء والحب، وكان بعض أبطالها معروفين بأعيانهم كعنترة وحاتم الطائي والسمؤل ابن عادياء.

ولقد حرص شراح النقائض الشعرية الأموية على رواية ما عرفوه من أخبار هذه الأيام كما وصلت إليهم من الرواة، واهتم بها المؤلفون كابن قتيبة وابن عبد ربه والأصفهاني والميداني وغيرهم، فغصت بها مصنفاتهم، وكان لبعض هذه الأيام شهرتها الفائقة ودلالاتها المعبرة كأيام البسوس، وداحس والغبراء، والكلاب، والفجار، بما حفلت من حكايات البطولة والفروسية، وكل هذا يعني أن العصر الجاهلي حافل بالقصص الحماسية التي تروي ما وقع بين القبائل آنذاك، وتروي حياة العرب البدوية، كما تروي في هذه الأيام مشكلات إنسانية مختلفة ومتنوعة.

2- عصر الإسلام:

في صدر الإسلام كان الرسول- صلى الله عليه وسلم- يستمع إلى "تميم الداري" يقص قصة "الجساسة والدجال"، والجساسة كما تزعم الأسطورة "دابة"، وسميت بذلك لأنها كانت تتجسس الأخبار فتأتي بها الدجال، والقرآن يكشف لنا عن صفحة ناصعة من ازدهار القصص، فقد راع العرب بنحو خمسين قصة وسميت إحدى السور باسم "القصص"، وترددت كلمة القصة وبعض مشتقاتها في خمسة عشر موضعا.

وكان العرب لشغفهم بالقصص يطلبون إلى النبي الأعظم -صلى الله عليه وسلم-أن يبسط لهم بعض ما كانوا على علم به وذكر منه كقصة أهل الكهف، فهذا القصص القرآني كان استجابة لما أولع به العرب من القصص، ومن ثم كان له أبلغ الأثر في إقرار العقيدة وإشاعة الإيمان،[ii] ولقد ارتبطت القصص بعد الإسلام بالوعظ والإرشاد في المساجد وتفسير القرآن من خلال قصص الأنبياء مع الاستعانة ببعض القصص القصيرة، والحكايات على اعتبار أنها وسيلة من وسائل التأثير في السامعين.

ويذكر الجاحظ أن أبا علي الأسواري قص في المسجد ستا وثلاثين سنة «فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة، فما ختم القرآن حتى مات، لأنه كان حافظا للسير، ولوجوه التأويلات فكان ربما فسر آية واحدة في عدة لمجالس، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث كثيرا، وكان يقص في فنون من القصص، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك».[iii]

وفي عهد الخلفاء الراشدين بدأت القصة تتخذ لنفسها وضعا رسميا، فتكون أشبه بمنصب يتولاه القادر عليه، فقد «روي أن أول من قص في مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو "تميم الداري" بعد استئذان عمر، فكان يقص في يوم الجمعة عقب الصلاة، ثم أذن له عثمان في أن يقص يومين في الأسبوع بدلا من يوم، وكان ابن عباس يجلس أيام الأسبوع للدرس والتعليم، فأفرد للقصة يوما.»[iv]

ولا نكاد نجد اهتماما عند النقاد العرب بهذه القصص من حيث إنها جنس من أجناس الخطاب النثري، أو تحديد لخصائصها وصفاتها، وإن كان الجاحظ قد أورد بعض الإشارات في كتابه "البيان والتبيين" فيها ذكر لبعض القصاص، وإبداء بعض الإعجاب ببلاغتهم دون تعليل لأسباب هذا الإعجاب وبواعثه.

3- العصر الأموي والعباسي:

إن الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان عملت على ازدهار القصص، وازدياد نشاط القصاص تحت رعاية وحماية الأمويين[v]، حيث كان معاوية يتخذ له قصاصا خاصا يحيي به لياليه في سماع الأقاصيص، ولا يكتفي بالسماع بل يأمر بتدوين ما يقوله القاص.

كما يحدثنا المقريزي أن معاوية أمر بأن تكون للقصة حصتان في كل يوم: حصة بعد صلاة الصبح، وأخرى بعد صلاة المغرب، وأنه كتب بذلك إلى الأمصار، وكان معاوية نفسه إذا فرغ من صلاة الصبح جلس إلى القاص مع الناس، وفي مصر كان أول قاص معين فيها من قبل معاوية هو "سليم التجيبي" وكان يقص على الناس وهو قائم، ويرفع يديه في قصصه، فكأنه يمثل المواقف ويصورها لسامعيه.

ولقد كان القصاص يرافقون الجيوش في سيرها إلى الفتوح، حيث يقصون قصص البطولة والشجاعة تحريضا لهم على القتال، كذلك كثر في تلك الحقبة وما قبلها من توفروا على جمع الأقاصيص والروايات التي فاضت بها كتب التاريخ والأخبار فيما تلا من العهود ومن هؤلاء كعب الأخبار، وأبو عبد الله محمد بن سلام، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبير.

وفي العصر العباسي أزهى عصور العربية في شتى مرافق الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية ازدهر القصص العربي، وكثر عدد المشتغلين به، وكان الموضوع الغالب هو قصص "الحب"، فاشتهرت قصص بعض شعراء العصر الأموي ومن رجال القصص في ذلك العصر أبو عبيدة، والضبي، وأبو هشام الكلبي.

وقد تطور القصص في المجال الديني الخاص بالوعظ إلى مجال آخر هو الحكايات والخرافات، لينتقل من المرحلة الشفهية إلى مرحلة التدوين والكتابة، ويأخذ خاصيته كجنس من أجناس الخطاب النثري الكتابي، بعد امتزاج الثقافات في العصر العباسي، وامتزج العرب بالأمم الأخرى خاصة الفرس الذين أخذوا عنهم كثيرا من القصص، فقد «كانت كتبهم في القصص التي نقلت من الفارسية إلى العربية ككليلة ودمنة، وأزهار أفسانة أساسا من الأسس التي بنت عليها الأجيال المتعاقبة مابين أيدينا من قصص عربي.»[vi]

وفي العصر العباسي الأول كان "الهيثم بن عدي" يملأ الأندية بالأخبار والقصص والنوادر، وفي منتصف القرن الرابع ألف أبو بكر النقاش كتابه "أخبار القصاص"وحكى حمزة الأصفهاني في القرن السادس أنه كان في عصره من كتب السمر التي تتداولها الأيدي ما يقرب من سبعين كتاب.

ولقد ضاق المتزمتون بانتشار القصص واشتغال الناس به عن العلم، ومع ذلك ظل الناس على ولعهم بالقصص يطلبون منه المزيد فوافاهم القصاص بما يشفي الغليل، مما اضطر السيوطيفي القرن التاسع إلى تأليف كتابه "تحذير الخواص من أكاذيب القصاص".

وبالتالي فإن الفن القصصي لم يعرف عند العرب إلا في عصر التدوين بعد أن انتشر نور الإسلام وتخلَّص العرب من الأُمية، وأصبحوا أمةً كاتبةً قارئة، مثقَّفة كأحسن ما تكون الأُمم ثقافةً وتحضُّر ً ا، بل كان هذا الفن

معروفًا قبل ذلك في الجاهلية، وهذا الحكم يستند أولاً إلى أن حب القصص نزعة فطرية، لا يمكن أن يخلو منها إنسان، فضلاً عن مجتمع كامل كالمجتمع العربي قبل الإسلام.

وتحولت القصص من طور الشفاهية إلى طور التدوين والكتابية، وبعد أن كانت تسمع بالآذان صارت تقرأ مدونة في الصحف، وأقبل الأدباء عليها يحاكونها وينسجون على منوالها، كما شغف الجماهير بها من نحو: كليلة ودمنة، البخلاء رسالة الغفران، رسالة التوابع والزوابع، المقامات، سيرة عنترة، ألف ليلة وليلة وما نسج على منوالها من القصص مما يؤكد أن فن القصة ظلت خيوطه تمتد وتتواصل من عصر إلى عصر، وأنها كانت متعددة الأشكال والألوان والأغراض أيضا.